

أثر الحديث في البلاغة العربية

NECATİ AVCI

Mehmet Akif Ersoy Üniv. İlahiyat Fakültesi
drnavci2000@yahoo.com

الملخص

إن تلاوة أحاديث الرسول -ص- وسلاسته وبلاغته تعبير بلاغية تعبر أكثر مما تحتوي من الكلمات، فهي كلمات وجيزة تتضمن معاني عميقة ومؤثرة؛ وبهذا إستقرت هذه الأحاديث من النفس البشرية وأدت أغراضها بما يجب عليها، فتأثر أصحاب اللغة العربية وبلاغيتها من مزاياها هذه واستعملوها شواهد لوضع قواعد اللغة، ولا يسع هذا البحث القصير لتقييم الأحاديث من الناحية البلاغية فهي أوسع وأعمق من أن نتمثل بها هنا. ولهذا أردنا أن نساهم ولو ببندة صغيرة على ما لتأثير الأحاديث في البلاغة العربية فحسب.

الكلمات المفتاحية: الأحاديث النبوية، مساهمة، البلاغة، اللغة العربية

Öz

Arap Belağatinde Hadisin Etkisi

Peygamber'in (s.a.v.) hadisleri, üstün feshat ve belağat derecesiyle az sözle çok mana ifade etmekte, derin ve kapsamlı meseleleri veciz bir şekilde dile getirmektedir. Bu sayede, hadislerin iletmeği istediğı mesaj yerini bulmuş ve muhataplarında daha kalıcı bir tesir bırakmıştır. Arap dilbilimcileri ve belağatçileri, bu özelliklerinden dolayı hadislerden etkilenmişler ve bunları belağat ilminin çeşitli mevzuları bağlamında örnek olarak kullanmışlardır. Hadislerin belağat derecesinin tahlili bir makaleye konu edilemeyecek ölçüde kapsamlı ve genişdir. Bu sebeple, bu çalışma sadece hadislerin Arap belağatinde bıraktığı etkiye dair bir katkı sunmayı amaçlamaktadır.

Anahtar Sözcükler: Peygamber'in Hadisleri, Belağat, Arap dili, Arap belağati

Abstract

The Influence of Hadith in Arabic Rhetoric

Due to their high degree of rhetorical power, the hadiths of the Prophet Muhammad articulate even complicated issues in a succinct and concise way. Therefore, the message that hadiths are intended to communicate always finds an ear and leaves a powerful impact on the listener. Arab linguists and rhetoricians were affected by this characteristic of hadiths so much so that they employed the hadiths to provide an example for certain aspects of Arabic rhetoric. An attempt to analyze the rhetorical power of the hadiths would be beyond the scope of this study, and so the present study only aims at making a contribution concerning the influence of the hadiths in Arabic rhetoric.

Keywords: Hadiths of the Prophet, Rhetoric, Arabic rhetoric, Arabic language

نبذة تاريخية ونظرة خاطفة على الموضوع

الحديث هو قول رسول الله أو حكاية فعله أو حديث الصحابة عنه. فهو في المنزلة الثانية من كتاب الله فيما يتعلق بالدين والثقافة، وأغزر ينابيع التشريع في العبادات والحقوق، وأقوم طريق إلى فهم القرآن: يوضح إشكاله، ويفصل إجماله، ويقيد إطلاقه، ويخصص عمومه. والأحاديث التي صحّت عن رسول الله قليلة، ولكنها موسومة بطابع البيان والإلهام والعبقرية، لنشأتها في قريش، واسترضاعه في بني سعد وهي أفصح القبائل العربية، وتضلّعه من لغة القرآن وإطلاعه على لغة العرب، وقدرته الفطرية على ابتكار الأساليب العالية، ووضع الألفاظ الجديدة لما استحدثت من المعاني الدينية والفقهية؛ ولكن قيمتها اللغوية ودلالاتها التاريخية لا تسموا إلى مكان القرآن في ذلك، لأن القرآن كان يدونه عند نزوله كتبةً الوحي، وكونه كلام الله جعل الإحتفاظ بنصه فرضاً على المسلمين، "فمن بدّله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه".¹ أما الحديث فلم يُدوّن إلا حوالي منتصف القرن الثاني للهجرة، وكان قبل ذلك إنما يروى من الذاكرة، والذاكرة كثيراً ما تخون، فناله من تغيير الكلمات، واختلاف الروايات أكثر مما نال الشعر الجاهلي. وزاد في ذلك أنّ العلماء أجازوا رواية الحديث بالمعنى لاستحالة المحافظة على اللفظ في نقله مشافهة طوال هذه السنين. وقامت الخصومات السياسية، ونجحت الفرق الدينية، فاستجاز أولو الأهواء الكذب على الرسول، فوضعوا ألوف الأحاديث تأييداً لدعوتهم وترجيحاً لنزعتهم. واستباح قوم وضع الأحاديث الموافقة لمبادئ الدين وقواعد الفضيلة. فملاؤا الكتب بأحاديث الترغيب والترهيب، وتعدوا ذلك إلى وضعها في فضائل الأشخاص والمدن، ولدعوة سياسية، أو نزعة عصبية أو غاية دينية، كالأحاديث الموضوعية في فضل قريش على العرب، وفضائل العرب على العجم، وتفضيل بعض الصحابة على بعض. ومن طريق الوضع أدخلوا في الحديث طائفة

¹ القرآن، 2/البقرة:181.

كبيرة من الحكيم المأثورة عن العرب، فأثرت في الخطابة والجدل والشعر تأثيرا غير قليل.

وأحاديث الرسول وإن كانت فيض الخاطر وعفو البديهة، يبدو عليها أثر الإلهام وسمّة العبقريّة وطابع البلاغة. فالرسول يستعمل الغريب، ويلتزم السجع، ويذكر ألفاظا من مهجور اللغات تبعاً لما جرى على لسان الوافدين عليه. كما في حديثه مع طهفة بن أبي زهير النهدي، ومع لقيط بن عامر، وذلك من حُسن أدبه وسمو بلاغته وقوة تأثيره.² وللرسول قدرة عجيبة على التشبيه والتمثيل وإرسال الحكمة وإجادة الحوار، وتلك ميزة الرُّسل.

وكلام الرسول (صلى الله عليه وسلم) في ذروة الفصاحة والبلاغة³، وقد قال عن نفسه: "أنا أفصح العرب بيد أيّ من قريش."⁴ وقال يحيى بن حمزة العلوي: "فإن كلامه وإن كان نازلاً عن فصاحة القرآن وبلاغته، فهي من الطبقة العليا بحيث لا يدانيه كلام ولا يقاربه وإن انتظم أي انتظام."⁵ وكلامه المصدر الثاني من مصادر التشريع السلامي، غير أن اللغويين والنحاة لم يستفيدوا منه كثيرا مع أن اعتزازهم به وتصديقهم لصاحب الرسالة الإسلامية كان فوق كل اعتزاز وتصديق. ولو اعتمد القدماء كثيرا على

² ابن عبد ربه، العقد الفريد (القاهرة، 1293هـ)، ج.1، ص.181.

³ البلاغة علوم وهي البيان والمعاني والبديع:

أ. علم البيان: وهو وسيلة إلى تأدية المعنى بأساليب عدة بين تشبيه ومجاز وكناية.

ب. وعلم المعاني: تُعين على تأدية الكلام مطابقاً لمقتضى الحال مع وفائه بغرض بلاغي يُفهم ضمناً من سياقه وما يحيط به من قرائن.

ج. أما علم البديع: فهو دراسة تزيين الألفاظ أو المعاني بألوان بديعية من الجمال اللفظي أو المعنوي.

علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة (القاهرة، د.ت)، ص.71، 108؛ للمزيد راجع كتب البلاغة.
⁴ إن الأحاديث التي استقتها مأخوذة من كتب البلاغة. وبما أن هدف هذا البحث هو أثر الحديث في البلاغة فلم نولي الإهتمام بصحة الحديث أو ضعفها أو مصدر الحديث، إنما يهمننا منها القوة البلاغية فيها فحسب. ولم نرد الإطالة بذكر مصادر الأحاديث أو الأسانيد.

⁵ يحيى بن حمزة العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (القاهرة: دار الكتب الخديوية، 1332هـ/1914م)، ج.1، ص.160.

كلامه لتطورت اللغة العربية، واستجدت صيغ، وبُنيت قواعد تغيّر كثيرا مما استقر في الأذهان. ولعل البلاغيين كانوا أشد التصاقا بالأحاديث الشريفة من علماء اللغة والنحو. فقد تحسسوا البلاغة النبوية، ونهلوا منها ما وسعهم قواعدهم وأسعفتهم تقسيماتهم. ولعل الشريف الرضي (359-406هـ/970-1016م)⁶ كان من أكثر القدماء رجوعا إلى كلام الرسول (صلى الله عليه وسلم)؛ وقد ألف كتاب سماه المجازات النبوية؛ تعرّض فيه لما ورد في الأحاديث الشريفة من فن المجاز بمعناه الواسع⁷، ونبه إلى ذلك فقال: "وإني سلكت من ذلك مَحَجَّة لم تسلك، وطرقت بابا لم يُطرق. وما رغبت فيه هو سلوك مثل تلك الطريقة في عمل كتاب يشتمل على مجازات الآثار الواردة عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، إذ كان فيه كثير من الاستعارات البديعة، ولُمع البيان الغريبة⁸، وأسرار اللغة اللطيفة"⁹. وهذه التفاتة عظيمة من الشريف الرضي إلى الحديث الشريف؛ وقد مهّد بذلك السبيل للبلاغيين الذين أخذوا يعتمدون على كلام الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويوردون منه أمثلة واضحة للفصاحة والبلاغة.

ويتجلى أثر الحديث في البلاغة العربية في موقفين:

الأول: اتّخاذ الحديث سبيلا لتعلم الكتابة والأساليب الرفيعة.

⁶ ولد ومات ببغداد ودرس العلم في طفولته، فبرع في الفقه والفرائض. فلما بلغ التاسعة والعشرين خلف أباه في نقابة الطالبين سنة 388هـ. ألف هذا الشاعر في معاني القرآن كتابا يدل على تضلعه في النحو واللغة وأصول الدين؛ وكتاب آخر في مجازات القرآن. وله مجموعة رسائل وديوان شعر؛ ثم كتاب نهج البلاغة، وهو ما جمعه من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. راجع أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي (القاهرة، 1959)، ص.285-287.

⁷ المجاز أنواع، وهو فرع من علم البيان؛ والمجاز اللغوي هو اللفظ المستعمل في غير معناه الأصلي لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي. راجع الجارم وأمين، البلاغة الواضحة، ص.71، 108.

⁸ الإستعارة نوع من المجاز اللغوي، وهو إحدى فروع البيان، وهو تشبيه حُذِف أحد طرفيه، فعلاقتها المشابهة دائما، وهي قسمان: تصريحية ومكنية. راجع الجارم وأمين، البلاغة الواضحة، ص.75.

⁹ الشريف الرضي، المجازات النبوية، تحقيق محمود مصطفى (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1356هـ/1937م)، ص.19.

الثاني: اتخاذ الحديث الشريف شاهدا بلاغيا رفيعا للغة.

الأول: اتخاذ الحديث سبيلا لتعلم الكتابة وإتقانها والتوصل إلى الأساليب الرفيعة فيها. أي أن كلام الرسول (عليه الصلاة والسلام) مادة أساسية لضبط اللغة والتفنن فيها. وكان ضياء الدين بن الأثير (637هـ/1239م) أشهر من دعا إلى ذلك في الفصل الذي عقده لآلات علم البيان¹⁰ وأدواته، فقال: "إذا ركب الله تعالى في الإنسان طبعاً قابلاً لهذا الفن فيفتقر حينئذ إلى ثمانية أنواع من الآلات."¹¹ وكان حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) والسلوك بها مسلك القرآن الكريم في الاستعمال أحد تلك الآلات. وقال شهاب الدين الحلبي (725هـ/1325م):

ويتلو ذلك الاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية، وخصوصاً في السير والمغازي والأحكام والنظر في معانيها وغريبها وفصاحتها، وفقه ما لا بد من معرفة أحكامها لينفق منها عن سعة ويستشهد بكل شيء في موضعه، ويحتج بمكان الحجّة، ويستدل بموضع الدليل، ويتصرف عن علم بموضوع اللفظ ومعناه، و يبني كلامه على أصل لا يدفع، ويسوق مقاصده إلى سبيل لا يحيد عنه ولا يرفع. فإن الدليل على المقصد إذا استند إلى النص سلم له وسلم، والفصاحة إذا طلبت غايتها فإنها، بعد كتاب الله في كلام من أوتي جوامع الكلم. وقد كان على ذلك في الصدر الأول من الصحابة وتابعيهم.¹²

وقال نجم الدين بن الأثير الحلبي (737هـ/1336م) فيما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من العلوم والفضائل ليُعد كاتباً:

¹⁰ علم البيان من علوم البلاغة ويشمل: التشبيه، والحقيقة والمجاز، والإستعارة، والكناية. راجع الجارم وأمين، البلاغة الواضحة، ص. 18-136.

¹¹ ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1358هـ/1939م)، ج. 1، ص. 9.

¹² شهاب الدين محمود الحلبي، حسن التوسل الى صناعة الترسُّل، تحقيق احمد عثمان يوسف (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام؛ دار الرشيد، 1980)، ص. 78.

ومنها حفظ جملة من الأحاديث النبوية لفائدتين:

الفائدة الأولى: تبركا بالحديث لقوله (صلى الله عليه وسلم): "من حفظ على أمي أربعين حديثا من أمر دينها بعثه الله يوم القيامة في زمرة العلماء؛ وهذه فائدة أخروية.

والفائدة الثانية: السلوك به مسلك تكّاب الله العزيز باستعماله في مطاوي كلامه مكان الاستشهاد به، وعند الاحتياج إليه بأمر أو نهي، بشرط لزوم الأدب الشرعي في استعماله حتى لا يستعمله فيما يكره الاستعمال فيه شرعا.¹³
ودخل الحديث الشريف في كلام الأدباء، واقتبسوا منه كثيرا، فقال القاضي منصور الهروي الأزدي:

ولو كانت الآراء لا تتشعب	فلو كانت الأخلاق تحوي وراثه
كأ أن كل الناس قد ضمهم أب	لأصبح كل الناس قد ضمهم هوى
لما هو مخلوق له ومقرب	ولكنها الأقدار، كلُّ ميسر

والبيت الأخير مقتبس من قوله (عليه الصلاة والسلام): "اعملوا، كل ميسر لما خلق له."¹⁴ وعقدوا من الحديث الشريف، كقول الإمام الشافعي (رضي الله عنه):

أربعُ قاهن خير البرية	عمدة الخير عندنا كلمات
ليس يعنك واعملن بنية	اتق الشبهات وازهد ودع ما

عقد قوله (عليه الصلاة والسلام): "الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات،" وقوله: "ازهد في الدنيا يحبك الله،" وقوله: "من حسن إسلام المرء

¹³ نجم الدين أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبي، جوهر الكنز، تحقيق محمد زغلول سلام (الاسكندرية: منشأة المعارف، د. ت.)، ص. 30.

¹⁴ جلال الدين الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق جماعة من علماء الأزهر (القاهرة، د. ت.)، ص. 419.

تركه ما لا يعنيه"، وقوله: "إنما الأعمال بالنيات."¹⁵ وأدخلوا الحديث في حسن التعليل،¹⁶ وقد قال ابن رشيقي، يعلل قوله (عليه الصلاة والسلام): "جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً":

سألت الأرض لِمَ جعلت مصلى
فقلت غير ناطقة: لأنني
ولمَ كانت لنا طهراً وطيباً
حُوت لكل إنسان حبيباً

قال العلوي: "ولقد أحسن في الاستخراج، وألطف في التعليل، فلأجل ما قاله كان ذلك علة في كونها طهوراً ومسجداً."¹⁷

وحلوا الأحاديث الشريفة، وكان ضياء الدين بن الأثير من أكثر القدماء اهتماماً بذلك، وقد تحدث عن حل آيات القرآن، فقال:

وأما حل آيات القرآن العزيز فليس ككثر المعاني الشعرية؛ لأن ألفاظه ينبغي أن يُحافظ عليها لمكان فصاحتها، إلا أنه يؤخذ لفظ الآية بجملة، فأن ذلك من باب التضمنين، وإنما يؤخذ بعضه، فأما أن يجعل أولاً للكلام أو آخراً على حسب ما يقتضيه موضعه. وكذلك يفعل بالأخبار النبوية على أنه قد يؤخذ معنى الآية والخبر فيكسي لفظاً غير لفظه، وليس لذلك من الحسن ما للقسم الأول.¹⁸

ثم قال: "وأما الأخبار النبوية فالقرآن العزيز في حل معناها." وذكر كثيراً من الأخبار النبوية المحلولة ليكون الطريق واضحاً لمن يقوى على سلوكه. وتبعه

¹⁵ القزويني، الإيضاح، ص. 423-424.

¹⁶ وهو من فروع البلاغة؛ ويعني تعليل المواضيع أو الظروف حسب موقعها الصحيح؛ وتشبيح المعنى.

¹⁷ العلوي، الطراز، ج. 3، ص. 139.

¹⁸ ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر، ج. 1، ص. 9.

في ذلك المتأخرون كشهاب الدين الحلبي في كتابه حسن التوسل الى صناعة التوسل،¹⁹ وابن الأثير الحلبي في كتابه جوهر الكنز،²⁰ وقد قال:

وأما حل الآيات من القرآن العزيز وكذلك الأحاديث النبوية، فينبغي للمنشئ أن لا يأخذ عند حل الآية والحديث جملة اللفظ، فإن ذلك باب التضمين، ولا يأخذ المعنى مجرداً عن اللفظ بكامله إلا إذا أراد بذلك الاستشهاد. بل إذا وقع له معنى، وكانت الآية من الآيات الكريمة أو حديث من الأحاديث النبوية يتضمن ذلك المعنى، فليجعل الآية والحديث في سياق كلامه المناسب للمعنى؛ فيطرز كلامه بالآية أو الحديث.²¹

لقد كان الحديث الشريف منهلاً عذباً استقى منه الأدباء بلاغتهم وفصاحتهم، وأخذوا عنه المعاني الرفيعة والصور البديعة والألفاظ الرشيقة، فأزدان أدهم وحلا لفظهم وعذبت معانيهم.

الثاني: اتخاذاً الحديث الشريف شاهداً بلاغياً رفيعاً إلى جانب كلام الله تعالى. والبلاغيون في هذا المنحى أكثر تحرراً من اللغويين والنحاة، وأعظم قدرة على تحسس ما في كلام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من بلاغة فاقت كلام العرب. وتتضح الاستفادة من الحديث في الشاهد البلاغي في كتاب الطراز ليحيى بن حمزة العلوي الذي اختط لنفسه منهجاً في ذكر الشواهد والأمثلة، فهو بعد أن ينتهي من بحث الموضوع بذكر أمثلة تتوزع على أربعة أنواع:

الأول: من كلام الله سبحانه وتعالى.

الثاني: من الأخبار النبوية الشريفة.

الثالث: من كلام الإمام علي (كرم الله وجهه).

الرابع: من كلام البلغاء وأهل الفصاحة.

¹⁹ شهاب الدين الحلبي، حسن التوسل، ص. 79.

²⁰ ابن الأثير الحلبي، جوهر الكنز، ص. 609.

²¹ ابن الأثير الحلبي، جوهر الكنز، ص. 105.

وهذه قاعدة مطردة سار عليها في كتابه، وبذلك تجلت العناية بكلام الرسول الكريم، واتضحت صورته المختلفة. وكان جلال الدين السيوطي (911هـ/1505م) يكثر من الاستشهاد بالحديث الشريف في فنون البلاغة ولا سيما البديع.²² قال: "وقد التزمت أن آتي في كل نوع بمثال فأكثر من الحديث النبوي تمرينا وتشريفًا وتيمنا."²³

وعند الرجوع إلى كتب البلاغة ولا سيما المتأخرة منها، نجد العناية بالحديث الشريف واضحة كل الوضوح؛ ونجد المؤلفين ينهلون من هذا المنهل العذب، ويوشحون به قواعدهم وتقسيماتهم إلى جانب كلام الله تعالى، وكلام العرب البلغاء. ويستطيع الباحث أن يضع يده على هذه الظاهرة في معظم فنون البلاغة، ولكن عناية المتقدمين بالمجالات النبوية كان أظهر لروعة كلام الرسول (صلى الله عليه وسلم) وجمال صورته الجديدة. وكان الشريف الرضي من أوائل الذين اهتموا بالجزاز وتحديثوا عنه في كتاب مستقل.

ومن كلامه (عليه الصلاة والسلام) الذي يدخل في الجزاز المرسل قوله: "المسلمون تتكافأ دماؤهم بمعنى أدناهم ويرد عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم." و "يد" هنا بمعنى القوة، وهذا التفسير هو الوجه الثاني الذي ذكره الشريف الرضي، قال: "والوجه الآخر أن يكون "اليد" ههنا بمعنى القوة، فكأنه (عليه الصلاة والسلام) قال: "وهم قوة على من سواهم." والقوة أحد المعاني التي يعبر عنها باسم اليد."²⁴

ومن ذلك قوله (عليه الصلاة والسلام): "اليد العليا خير من اليد السفلى"، وقوله: "إن الأخلاق بيد الله فمن شاء أن يمنحه منها خلقاً حسناً فعل"، وقوله:

²² وهو علم يبحث في المحسنات اللفظية والمعنوية. كالجناس والاقتراب والسجع والتورية والطباق والمقابلة وحسن التعليل والأسلوب الحكيم. للزبير راجع كتب البلاغة.

²³ جلال الدين السيوطي، شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان (القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، 1358هـ/1939م)، ص.105.

²⁴ الشريف الرضي، المجازات النبوية، ص.25.

"مات حتف أنفه"، فقد أطلق الجزء وأراد الكل.²⁵ وقوله: "الصدقة عن ظهر غنى"، والظهر هنا القوة، أي له قوة من الغنى. وفي كلام الرسول الأعظم كثير من المجازات العقلية، ومن ذلك قوله (عليه الصلاة والسلام): "حمي الوطيس"، وقوله: "إن من البيان لسحرا"، وقوله: "حُبُّكَ الشئُ يعمي ويصم"، وقوله: "تنام عيناى ولا ينام قلبي"، وقوله: "وصل الظهر بعدما يتنفس الظل وتبرد الرياح"، وقوله: "إذا ملأ الليل بطن كل واد."²⁶

وفيه من مجاز الحذف قوله (عليه الصلاة والسلام) في جبل أحد: "هذا جبل يحبنا ونحبه" أي: يحبنا أهله. وقوله: "نهران مؤمنان ونهران كافران" أي: أن أهل هذين النهرين مؤمنون، وأهل هذين النهرين كفرون. وقوله: "الإيمان هَيوب" أي صاحب الإيمان هَيوب.

ومن الاستعارات البديعية في كلامه (عليه الصلاة والسلام) قوله: "كلما سمع هبعة طار لها"، فإن العَدُوَّ والطيران يشتركان في أمر داخل في مقومهما، وهو قطع المسافة بسرعة ولكن الطيران أسرع من العَدُوِّ. ومن ذلك قوله: "أكثرُوا من ذكر هادم اللذات فإنكم إن ذكرتموه في ضيقٍ وسَّعه عليكم". فاستعار "هادم اللذات" لهوت. وقوله: "لا تستضيئوا بنار المشركين"، فاستعار بذكر النار للرأي والمشورة، والمعنى: لا تهتدوا بآراء المشركين. وقوله: "قيّدوا القرآن بالدرس فإن له أوابد كأوابد الوحش"، فاستعار ذكر الأوابد وهى الحيوانات الوحشية لما فيها من النفار وشدة الشرود لذهاب هذه المحفوظات عن القلب إذا لم تكن راسخة بشدة الدرس لها.²⁷ وفي كتاب المجازات النبوية للشريف الرضي كثير من هذه الاستعارات البديعية التي كان كثير منها جديدا لم ينطق بمثله العرب.

²⁵ البديل وأنواعه: البديل؛ تابع مُمَّهَد له بذكر اسمٍ قبله غير مقصود لذاته؛ وهو أنواع: مطابق، بعض من كل، وإشتمال. راجع كتب قواعد اللغة العربية، موضوع البديل.

²⁶ تنظر الأحاديث في المجازات النبوية، للشريف الرضي، ص. 44، 94، 135، 172، 212.

²⁷ العلوي، الطراز، ج. 1، ص. 214-216.

ومن التشبيهات البديعية في كلامه (صلى الله عليه وسلم) قوله: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم"، وقوله: "المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"، وقوله: "الحياء من الإيمان كالرأس من الجسد"، وقوله: "الناس كأسنان المشط في الإستواء"، وقوله: "انه لم يبق من الدنيا إلا كأناخة راكب أو صرّ حالب."²⁸

ومن التخييل قوله (عليه الصلاة والسلام): "أتيتكم بالحنيفية البيضاء" وذلك لتخييل أن السنن ونحوها من الجنس الذى هو إشراق أو ابيضاض، وأن البدعة ونحوها على خلاف ذلك.²⁹ وكثير من هذه التشبيهات أصبح أمثالا كقوله (عليه الصلاة والسلام): "أنتم الشعار والناس الدثار"، وقوله: "الإسلام يجب ما قبله"، وقوله: "إياكم وخضراء الدمن"، وقوله: "الصدقة عن ظهر غنى"، وقوله: "المؤمن مرآة أخيه."³⁰

وفى الأحاديث الشريفة كثير من الكنايات. وقد قال ابن أبي الإصبع المصري: "وفى السنة النبوية من الكنايات ما لا يكاد يحصى كقوله (صلى الله عليه وسلم): "لا يضيع العصا عن كتفه" كناية عن كثرة الضرب أو كثرة السفر.³¹ ومن ذلك قوله (عليه الصلاة والسلام): "ذاك رجلٌ لا يتوسد القرآن." قال الشريف الرضي: وهذه من الاستعارات العجيبة والكنايات الغريبة، وهي تحتل معنيين: أحدهما مدحٌ والآخر ذم. فأما المدح فهو أن يكون المراد به أنه لا ينام عن قراءة القرآن، بل يقطع ليله بالتهجد به والتصرف مع تلاوته فيكون القائم بدرسه كالمشتمل به؛ والنائم كالمتوسد له، كأنه جعله وسادا لخدمه وفاضلا لجنبه. وأما المعنى الآخر الذى يحتمل الدم فهو أن يكون المراد أن غير حافظ

²⁸ العلوي، الطراز، ج.1، ص.330.

²⁹ القزويني، الإيضاح، ص.221.

³⁰ تنظر الأحاديث في المجازات النبوية للشريف الرضي، ص.41، 51، 61، 61، 66، 68.

³¹ ابن أبي الإصبع المصري، تحرير التحيير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق حفي محمد شرف (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1383هـ/1963م)، ص.144.

القرآن ليس بخازن من خزنته ولا وعاء من أوعيته، فإذا نام لم يكن متوسداً له كما يتوسده من هو ظرف من ظروفه الحاوية له والمشملة عليه.³²

ومن ذلك أيضاً قوله لأزواجه (رضي الله عنهم): "أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً" أي: أسرعكن وأكثركن كرمًا وعطاءً،³³ وقوله: "يا أنجشهُ رفقاً بالقوارير" وهذا كناية عن النساء.³⁴

ومن التعريض قوله (صلى الله عليه وسلم) وقد خرج يوماً وهو محتضن لأحد الحسنين، فقال لهما: "إنكما لمن ریحان الله، وإن آخر وطأة وطئها الله بوجّ"، وفي ذلك تعريض بقرب وفاته (عليه الصلاة والسلام).³⁵

ومن أهم خصائص الأحاديث الفنية أنها موجزة كل الإيجاز، وبذلك استشهد بها البلاغيون عند كلامهم عن الإيجاز. ومن ذلك قوله (صلى الله عليه وسلم): "الحزم سوء الظنّ"، وقوله: "الخراج بالضمنان"، وقوله: "لا ضرار في الإسلام"، وقوله: "الطمع فقرٌ واليأسُ غنى".³⁶ ومن الإيجاز بالتقرير - وهو الذي تكون ألفاظه مساوية لمعناه - قوله (عليه الصلاة والسلام): "الحلال بين والحرام بين وبين ذلك مشتبهات"، وقوله: "إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى"، وقوله: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك".³⁷ وفي كلامه (صلى الله عليه وسلم) الإيجاز بالحذف؛ فقد قال المهاجرون: "يا رسول الله إن الأنصار قد فضلونا بأنهم آوونا ونصرونا، وفضلوا بنا وفضلوا". فقال (صلى

³² الشريف الرضي، المجازات النبوية، ص.41.

³³ الشريف الرضي، المجازات النبوية، ص.59-60.

³⁴ العلوي، الطراز، ج.1، ص.407.

³⁵ العلوي، الطراز، ج.1، ص.388.

³⁶ القزويني، الإيضاح، ص.211؛ العلوي، الطراز، ج.2، ص.89، 128.

³⁷ العلوي، الطراز، ج.2، ص.122.

الله عليه وسلم): "أتعرفون ذلك لهم؟" قالوا: "نعم." فقال: "فإن ذلك." قال الجاحظ: "ليس في الحديث غير هذا، يريد أن ذلكم شكر ومكافأة."³⁸

وقد قال (عليه الصلاة والسلام) عن نفسه: "أوتيتُ جوامع الكلم" أي أنه "مكّن من الألفاظ المختصرة التي تدل على المعاني الغزيرة."³⁹ ولكنه (صلى الله عليه وسلم) كان يطنب إذا اقتضى المقام، ومن ذلك قوله: "من لذذ أخاه بما يشتهيهِ رفع الله له ألف ألف درجة وكتب له ألف ألف حسنة ومحاً عنه ألف ألف سيئة، أو أطعمه من ثلاث جنان: من جنة الفردوس، ومن جنة الخلد، ومن جنة عدن،" وقوله: "من سقى مؤمناً شربة سقاه الله من الرحيق المختوم - أو قال من نهر الكوثر-، ومن كسا مؤمناً كساه الله سندس الجنة، ومن أطعم مؤمناً لقمته أطعمه الله من طيبات الجنة وفواكهها."⁴⁰

ومن الإطناب بالتوشيح قوله (صلى الله عليه وسلم): "يشيب ابن آدم ولا يشيب فيه خصلتان: الحرص، وطول الأمل."⁴¹ وقد يكرر⁴² إذا كان المعنى يتطلب ذلك؛ ومنه قوله في وصف يوسف الصديق: "الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم؛ يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم."⁴³

وفي كلامه (صلى الله عليه وسلم) كثير من ألوان البديع التي أسرف فيها المتأخرون، وهو في ذلك لا يثقل القول بها وإنما يستعملها إذا اقتضاه المعنى وتطلبها الموقف، أي أن فنون البديع جزء من العبارة وليس حلية تُقتَسَر أو زينة يؤتى بها لتحسين الكلام فقط. وورود هذه الألوان في كلام

³⁸ الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1367-1369هـ/1948-1950م)، ج 2، ص 278.

³⁹ العلوي، الطراز، ج 2، ص 88.

⁴⁰ العلوي، الطراز، ج 2، ص 248.

⁴¹ القزويني، الإيضاح، ص 196؛ ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ص 316.

⁴² التوكيد نوعان: لفظي ومعنوي. وهو تابع يذكر في الكلام لدفع ما قد يتوهمه السامع مما ليس مقصوداً.

راجع كتب القواعد، موضوع البدل.

⁴³ القزويني، الإيضاح، ص 8؛ العلوي، الطراز، ج 2، ص 181.

أفصح العرب وأبلغهم دليل على أن السجع أو الموازنة أو الجناس أو غيرها ليست عيباً في الكلام بل هي ركن من أركانه. وقد حفل كتاب الله بكثير منها، ومعنى ذلك أن فهمها نَدَّ عن بعض المعاصرين، فاتهم هذا اللون من التعبير بما لا يصحّ، متخذاً صور الأدب في العصور المتأخرة مثلاً لذلك ونسي هو أو غيره ما بين القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام البلغاء وما بين المتأخرين من فروع جوهريّة تجعل الباحث لا يعطي حكمه على هذه الألوان من خلال النصوص الرديئة والكلام الركيك.

ومن ألوان البديع التي تردت في كلامه (عليه الصلاة والسلام) السجع، كقوله: "ظهورها حرزٌ وبطونها كنزٌ" وقوله: "اللهم إني أدرك بك نحوهم وأعوذ بك من شرورهم"، وقوله: "ألا وإن من علامات العقل التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والتزود بسكنى القبور والتأهب ليوم النشور"، وقوله: "وقد رأيتم الليل والنهار كيف يبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد، ويأتیان بكل موعود."⁴⁴

ومن الموازنة قوله (عليه الصلاة والسلام): "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"، ف"سبيل" و"غريب" مختلفان في اللفظ، متفقان في الرّنة، وقوله: "فإذا أصبحت نفسك فلا تحدثها بالمساء، وإذا أمست فلا تحدثها بالصباح"، ف"المساء" و"الصباح" مختلفان لفظاً متفقان في الوزن.⁴⁵

ومن اللف والنشر قوله: "فإن المرء بين يومين، يوم قد مضى أحصى فيه عمله نُحْتِم عليه، ويوم بقي لا يدري لعله لا يصل إليه."⁴⁶

ومن المبادئ والافتتاحات ما رواه ابن عمر (رضي الله عنه) قال: "كان يعلمنا خطبة الحاجة بقوله: الحمد لله ونستعينه، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له،

⁴⁴ الشريف الرضي، المجازات النبوية، ص.26؛ القزويني، الإيضاح، ص.394؛ العلوي، الطراز، ج.3، ص.30.

⁴⁵ العلوي، الطراز، ج.3، ص.39.

⁴⁶ العلوي، الطراز، ج.2، ص.405.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله." فهذه الكلمات كان يذكرها إذا أراد حاجة من الحوائج من نكاح أو موعظة أو فصل قضية أو غير ذلك من سائر الحاجات. وكان يقول (عليه الصلاة والسلام) غيرها في أغراض أخرى.⁴⁷ أي أنه كان يربط بين إفتتاح وغرضه، وهذا من أهم خصائص الكلام الذي يدل أوله على آخره وينبئ مطلعته على مقطعه.

ومن التخلص البديع قوله (صلى الله عليه وسلم): "قد رأيتم الليل والنهار كيف يبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد، ويأتيان بكل موعود." ثم قال بعد ذلك: "فإذا التبست عليكم الأمور كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مُشفعٌ، وشاهد مصدقٌ، فمن جعله إمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، هو أوضح دليل إلى خير سبيل." قال العلوي: "فانظر إلى ما أودعه في هذا الكلام من التخلص الرائق، فبينما هو يذكر حال الليل والنهار وحكهما في المكونات إذ خرج إلى حال القرآن ووصفه، وإن فيه الإيضاح لكل مشكل وبياناً لكل أمر مُلتبس، تخلص إلى ذكره بأحسن تخلص."⁴⁸

وقد يرد الإقتضاب في كلامه (صلى الله عليه وسلم) ولكن ذلك الإقتضاب يكاد يقرب من التخلص، ومن ذلك قوله: "فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشيببة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت" بعد قوله: "ألا وإن المرء بين مخافتين: بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه، فليأخذ العبد لنفسه من نفسه."⁴⁹

⁴⁷ العلوي، الطراز، ج.2، ص.270.

⁴⁸ العلوي، الطراز، ج.2، ص.341.

⁴⁹ العلوي، الطراز، ج.2، ص.349.

ومن الإرصَاد قوله (عليه الصلاة والسلام): "فما بعد الموت من مُسْتَعْتَبٍ، وما بعد الدنيا دارٌ إلا الجنة أو النار؛ فإن السامع إذا وقف على قوله: "فما بعد الدنيا من دارٍ فإنه يتحقق لا محالة أن ما بعده "إلا الجنة أو النار" لما بينهما من شدة الملازمة وعظيم المناسبة.⁵⁰

ومن الاطراد قوله (عليه الصلاة والسلام): "الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم؛ يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم."⁵¹

ومن الجناس البديع قوله (عليه الصلاة والسلام): "الخليل معقودٌ بنواصيها الخبر،" وقوله: "اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا،" وقوله: "المؤمنون هينون لِينُونَ،" وقوله: "الظلم ظلماتٌ يوم القيامة،" وقوله: "خلوا بين جرير والجرير،" وقوله: "عليكم بالأبكار فإنهنَّ أشد حبا، وأقل حبا،" وقوله: "جار الدار أحقُّ بدار الجار."⁵²

ومن الطباق قوله (عليه الصلاة والسلام): "عليك بالرفقِ يا عائشة، فإنه ما كان في شيءٍ إلا زانه، ولا نُزع من شيءٍ إلا شأنه،" فجمع بين "الزين" و "الشين" وهما ضدان.⁵³

ومن لزوم ما لا يلزم قوله (صلى الله عليه وسلم): "فإن كان كريما أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك،" وقوله: "وليُحسن عمله، وليُقصر أمله،" وقوله: "فلا يُغني عنكم إلا عمل صالح قدمتموه، أو حسن ثوابٍ جزتموه."⁵⁴ وهذا ليس من الإلزام الذي ضيق الأدباء به على أنفسهم كما فعل أبو العلاء المعري (363-449هـ/973-1057م) في اللزوميات.⁵⁵

⁵⁰ العلوي، الطراز، ج.2، ص.322.

⁵¹ القزويني، الإيضاح، ص.382.

⁵² الشريف الرضي، المجازات النبوية، ص.49.

⁵³ العلوي، الطراز، ج.2، ص.380.

⁵⁴ العلوي، الطراز، ج.2، ص.400.

⁵⁵ هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي نسبة إلى تنوخ إحدى قبائل اليمن. ولد هذا الفيلسوف الحكيم بالمعرة شمال سورية من أبوين شريفين. لقد كان أبوه من أفضل العلماء وجده قاضياً بالمعرة. فلما

ومن تأكيد المدح بما يشبه الذم قوله (عليه الصلاة والسلام): "أنا أفصحُ العرب بيْدَ أني من قريشَ".⁵⁶

ومن الإبهام قوله (صلى الله عليه وسلم): "عش ما شئتَ فإنك ميتٌ، وأحبب من أحببتَ فإنك مُفارقهُ، واعمل ما شئتَ فإنك مُلاقِيهِ"، وقوله: "أحب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وابغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما".⁵⁷

ومن الإبهام الذي ظهر تفسيره قوله (عليه الصلاة والسلام): "ألا أنبئكم بأمرين خفيفة مؤونتهما عظيمٌ أجرهما، لن يُلقى الله بمثلهما"، ثم قال بعد ذلك تفسيراً لهما: "الصمتُ وحسن الخلقِ". ومن ذلك قوله: "ألا أدلكم على ما إذا فعلتموه تحاببتم؟" قالوا: "نعم"، قال: "أفشوا السلام." وقوله: "ألا أدلكم على أخسر الناس صفقة؟" قالوا: "نعم"، قال: "من باع آخرته بدنياه غيره".⁵⁸

هذه بعض ملامح أثر الحديث النبوي الشريف في البلاغة العربية، وهي ملامح تدفع إلى العناية بكلام أفصح العرب وأبلغهم محمد (صلى الله عليه وسلم). فقد اهتم علماء اللغة والنحو بكلام العرب ولم يقفوا طويلاً عند الأحاديث الشريفة، وكان علماء البلاغة أكثر استفادة منهم، ولكنهم مع ذلك لم يتعمقوا في دراسة أسلوب الأحاديث واستخلاص القيم الجمالية

بلغ الرابعة من عمره أصيب بالجدري فذهب بعينه؛ فنشأ ضريراً، وأخذ يدرس اللغة والأدب حتى تفوق. وبعد أن طوّف في بلاد الشام رحل إلى بغداد ليدرس الحكمة والفلسفة الهندية. وعاد إلى المعرة سنة 400 هـ. له مؤلفات لم يبق منه إلا سقط الزند، واللزوميات، والدرعيات، والفصول والغايات، وعبث الوليد وهو شرح ديوان البحري، وديوان رسائله، ورسالة الملائكة، ورسالة الغفران، وهي شديدة الشبه بالمهابة الإلهية لدانتي (Dante)، والفرردوس المفقود لميلتن (Milton). وقد فقد كتاب الأيكة والغصون في مائة مجلد، وذكرى حبيب وهو شرح ديوان أبي تمام، وغير ذلك. تنظر أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي (القاهرة، 1959)، ص. 306-311.

⁵⁶ القزويني، الإيضاح، ص. 373.

⁵⁷ العلوي، الطراز، ج. 2، ص. 81-82.

⁵⁸ العلوي، الطراز، ج. 2، ص. 87.

والصور الفنية التي حفلت بها. ولعل كتاب المجازات النبوية للشريف الرضي كان أهم معلّم من المعالم، ولكنه وقف عند المجازات وترك الفنون الأخرى للبلاغيين الذين لم يتعمقوا فيها، وإن ذكروا في كثير من أبواب البلاغة بعض الأحاديث، كما فعل العلوي في الطراز، والسيوطي في شرح عقود الجمان. ولكن تلك المحاولات تظل ناقصة، وتبقى البلاغة النبوية بعيدة عن الدراسة الجادة. ولعل هذا البحث الموجز الذي اعتمد على ما ذكره السابقون ولا سيما علماء البلاغة في العهود المتأخرة يدفع إلى التعمق في هذا اللون من الدراسات، وهو تعمق تتطلبه المناهج الحديثة، وتحتاج إليه اللغة العربية وهي تسعى إلى استيعاب ألوان الحضارة الجديدة، وتتحفز للتقدم في مجالات الثقافة المختلفة وميادين العلم في هذا العصر.

كان كلامه (عليه الصلاة والسلام) بليغاً يأسر النفوس ويأخذ بمجامع القلوب وهو القائل: "إنّ من البيان لَسِحْرًا"، فما ذلك البيان؟ وما سماته؟ لقد وقف القدماء عند بلاغته وفصاحته، وكان الجاحظ (255هـ/868م) من أوائل الذين لخصوا تلك السمات بقوله: "هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه، وكثرت معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزه عن التكلف".⁵⁹

وكان كما قال الله تبارك وتعالى: "قلّ (يا محمد):... وما أنا من المتكلفين".⁶⁰ فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التعقيب!⁶¹ واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر

⁵⁹ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: ولد بالبصرة ونشأ بها ودرس على جهاذة اللغة والرواية كالأصمعي وأبي عبيدة، وتخرج في علم الكلام على أبي إسحاق النّظام أحد أئمة المعتزلة. مؤلفاته تربو على مائتي كتاب، ولم ينشر منها إلا كتاب البيان والتبيين في الأدب والإنشاء والخطابة، وكتاب الحيوان، وكتاب المحاسن والأضداد، وكتاب البلاء، ودبوان رسائله. راجع ياقوت الحموي، معجم الأدياء (القاهرة، 1980)، ج. 16، ص. 113؛ حنا الفاخوري، الجاحظ (بيروت، 1953)، ص. 15؛ الزيات، تاريخ الأدب العربي، ص. 232-233؛ جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية (القاهرة، د.ت.)، ج. 2، ص. 170.

⁶⁰ القرآن، 38/ص: 86: "قلّ ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين".

⁶¹ التعقيب كالتعقير، وهو أن يتكلم بأقصى قعر فمه.

الغريب الوحشي، ورغب المهجين السَّوقي، فلم ينطق إلاّ عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلاّ بكلامٍ قد حَفَّ بالعِصمة وشُدَّ بالتأييد، ويسرّ بالتوفيق. ويقول الجاحظ، يصف كلام الرسول:

وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاهُ بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حُسن الإِفهام وقلة عدد الكلام مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى مُعادته، فلم تسقط له كلمة ولا زلّت به قدم ولا بارت له حُجة ولم يَقم له خصم ولا أفحمه خطيب، بل يبذُ الخُطْبُ الطوال بالكلم القصار، ولا يلتبس إسكات الخضم إلاّ بما يعرفه الخضم، ولا يحتج بالصدق ولا يطلب الفلج إلاّ بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يُبطئ ولا يُعجل، ولا يسهب ولا يحصر. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين من فحوى.

ويستمر الجاحظ في كلامه عنه (صلى الله عليه وسلم) فيقول: قال محمد بن سلام: قال يونس بن حبيب: "ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)؛" وينهي كلامه بقوله:

وقد جمعت لك في هذا الكتاب جُملاً التقطناها من أفواه أصحاب الأخبار، ولعل بعض من يتسع في العلم ولم يعرف مقادير الكلام يظن أنّا قد تكلفنا له من الامتداح والتشريف ومن التزيين والتجويد ما ليس عنده ولا يبلغه قدره. كلا والذي حرم التزيين على العلماء وقبح التكلف عند الحكماء، وبهرج الكذابين عند الفقهاء ما يظن هذا إلاّ
مَنْ ضَلَّ سَعِيَهُ.⁶²

⁶² الجاحظ، البيان والتبيين، ج.2، ص.17-18.

لقد انتبه الجاحظ إلى هذه المسألة التي قد تُثار في كل زمان، وذكر سمات كلام رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وأبرزها كثرة معانيه مع الإيجاز، وابتعاده عن الصنعة والتكلف والإسراف، ومطابقتها لمقتضى الحال، فالمبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهَجْرُ الغريب الوحشي والرغبة عن المهجين السوقي، وغير ذلك مما ذكره الجاحظ وفيما يلاحظه الباحث في البلاغة النبوية التي جاءت من غير تعليم سوى ثقافة النشأة في بيئة فصيحة اللسان بليغة القول سليمة الفطرة، وذكاء العقل الوقاد، واختيار الله تعالى ليكون رسولا للناس كافة. وليس وراء ذلك أعظم من هذه الصفاة التي جعلته (عليه الصلاة والسلام) ينطلق انطلاقا إنسانيا، ويعبر عما يحس به الإنسان في كل زمان ومكان، مما دفع علماء البلاغة إلى الوقوف عند عباراته وقفة إكبار وتقدير وإجلال، فقد قال (عليه الصلاة والسلام):

لا تكونوا ممن اختدعته العاجلة وغرته الأمنية، واستهوته الخدعة فركن الى دار سريعة الزوال وشيكة الإنتقال، إنه لم يبق من دنيائكم هذه في جنب ما مضى إلاّ كإناخة راكب أو صدر حالب، فعلام تفرحون؟ وماذا تنتظرون؟ فكأنكم بما قد أصبحتم فيه من الدنيا لم يكن، وبما تصيرون اليه من الآخرة لم يزل. نخذوا الأهبة لأزوف النقلة وأعدوا الزاد لقرب الرحلة، واعلموا أن كلّ امرئٍ على ما قدم قادم، وعلى ما خَلَّف نادم.

قال العلوي معلقاً على هذا الكلام العذب:

فليعمل الناظر نظره في هذا الكلام، فما أسلَسَ ألفاظه على الألسنة، وما أوقع معانيه في الأفئدة وما احتوى عليه من التنبيه البالغ والوعظ الزاجر والنصيحة النافعة، فصدره بالتحذير أولاً عما يعرض من مصائب الدنيا من الإنخداع والغرور والإستهواء، وعقبه ثانياً بالتحذير عن الركون الى الدنيا، ونبهه بالطف عبارة وأوجزها على زوالها

وانقطاعها، وأردفه ثالثاً بالحث على عمل الآخرة وأخذ الأهبة للزاد، ونبه على سرعة زوالها وانقطاعها، وختمه بتحقيق الحال في الإقدام على ما فعله من خير وشر، وأنه نادماً لا محالة على ما خلفه من الدنيا، وأنه غير نافع ولا مُجد.⁶³

فكلام الرسول العظيم الذروة في البلاغة والتصوير، إنه رقيق وإنه جزل، ومن الرقيق قوله (عليه الصلاة والسلام): "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وأعد نفسك في الموتى فإذا أمسيت فلا تحدثها بالصباح، وإذا أصبحت فلا تحدثها عن المساء. وخذ من صحتك لسقمك، ومن شبابك لهرمك، ومن فراغك لشغلك."⁶⁴

ومن الجزل قوله (عليه الصلاة والسلام): "يا بن آدم تُؤتي كل يوم برزقك وأنت تحزن، وينقص كل يوم من عمرك وأنت تفرح، أنت فيما يكفيك وتطلب ما يُطغيك، ولا بقليل تقنع ولا من كثير تشبع."⁶⁵

وكان (عليه الصلاة والسلام) يبتعد عن الكلمات التي توجي بما يخرج عن الأدب، ومن ذلك قوله وقد كسا أسامة بن زيد قُبْطية⁶⁶، فكساها امرأته فقال له (عليه الصلاة والسلام): "أخاف أن تصف حجم عظامها" ولم يقل "حجم أعضائها" لما في هذه الكلمة من إيحاء غير بديع. قال الشريف الرضي:

وهذه إستعارة، والمراد أن القبطية برقتها تلصق بالجسم فتبين حجم الثديين والرادفتين، وما يشدّ من لحم العضدين والفخذين فيعرف الناظر إليها مقادير هذه الأعضاء حتى تكون كالظاهرة للحظة؛ والممكنة للمسمة، فيجعلها (عليه الصلاة والسلام) لهذه الحال كالواصفة لما خلفها، والخبرة

⁶³ العلوي، الطراز، ج.1، ص.161.

⁶⁴ العلوي، الطراز، ج.1، ص.118.

⁶⁵ العلوي، الطراز، ج.1، ص.117.

⁶⁶ القُبطية - بضم القاف- ثياب تُسب إلى القبط بمصر.

عما استتر بها. وهذه من أحسن العبارات عن هذا المعنى، وهذا الغرض رمى عمر بن الخطاب في قوله: "وأيّاكم ولبس القباطي فإنها إلا تشفّ تصف". فكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أباً عذر هذا المعنى، ومن تبعه فإنما سلك نهجه وطلع بحقه.⁶⁷

ومن ذلك قوله: "لا يقولنّ أحدكم خبثت نفسي، ولكن ليقل لقست نفسي"، فكأنه كره أن يضيف المؤمن الطاهر النفس الى الخبث والفساد بوجه من الوجوه.⁶⁸

وسبق (عليه الصلاة والسلام) العرب في كلام جديد لم يألفوه أو لم يأتوا به من قبل. قال الجاحظ: "وسنذكر من كلام رسول الله (عليه الصلاة والسلام) ما لم يسبق إليه عربي ولا شاركه فيه أعجمي، ولم يدع لأحد ولا ادّعه أحد مما صار مستعملاً ومثلاً سائراً". ومن ذلك قوله (عليه الصلاة والسلام): "يا خيل الله اركبي"، وقوله: "مات حتف أنفه"، وقوله: "لا تنتطح فيه عنزان"، وقوله: "الآن حمي الوطيس"، وقوله: "كُلُّ الصيد في جوف الفرا"، وقوله: "لا يلسع المؤمن من جحر مرتين".⁶⁹ ومن ذلك قوله: "يا أنجشه رفقا بالقوارير"، وقوله: "أخاف أن تصف حجم عظامها".⁷⁰

وأثارت مثل هذه الكلمات الجديدة تعليقات بديعة، فقال الشريف الرضي عن قوله (عليه الصلاة والسلام):

"الآن حمي الوطيس" وهذه اللفظة الأغلب عليها إنها من جملة الأمثال من قوله (عليه الصلاة والسلام)، وقد شرطنا ألا نذكر ههنا ما

⁶⁷ الشريف الرضي، المجازات النبوية، ص.129.

⁶⁸ الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون (القاهرة، 1938)، ج.1، ص.235.

⁶⁹ راجع الجاحظ، البيان والتبيين، ج.2، ص.15-16؛ الحيوان، ج.1، ص.235؛ السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى، علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة، د.ت.)،

ج.1، ص.201.

⁷⁰ الشريف الرضي، المجازات النبوية، ص.23، 129.

تلك حاله إلا أن لها بعض الدخول في باب الاستعارة، فلذلك رأينا الإيماء إليها والتنبية عليها. فقلوه (عليه الصلاة والسلام): "الآن حمي الوطيس" وهو يعني حمس الحرب وعظم الخطب مجازاً؛ لأن الوطيس في كلامهم حفيرة تحتفر فتوقد فيها النار للإشتواء وتجمع على "وُطس"، فإذا احتفرت لإحتياز فهي "إرؤ" وتُجمع على "إرين"، ولا وطيس هناك على الحقيقة وإنما المراد ما ذكرنا من حرّ القراع وشدة المصاع⁷¹، والتفات الأبطال واختلاط الرجال.⁷²

وقال ضياء الدين بن الأثير:

وهذا لم يُسمَع من أحد قبل رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ولو أتينا بجاز غير ذلك في معناه فقلنا: "استعرت الحرب لما كان مؤدياً من المعنى ما يؤديه "حمي الوطيس". والفرق بينهما أن الوطيس هو التنور، وهو موطن الوقود ومجتمع النار، وذلك يخيل الى السامع أن هناك صورة شبيهة بصورته في حميها وتوقدها، وهذا لا يوجد في قولنا: "استعرت الحرب" أو ما جرى مجراه.⁷³

هذا بعض كلام الرسول (صلى الله عليه وسلم) مما لم ينطق به أحد، وهو دليل على أثره في اللغة العربية وأساليبها وتطورها، وقد صدق (عليه الصلاة والسلام) حينما قال: "أوتيتُ جوامع الكلم" أي: أنه أُوتي الكلم الجوامع للمعاني ذوات الدلالة القوية الواضحة والمؤثرة الموحية. ومن ذلك قوله (عليه الصلاة والسلام): "هذه مكة قد رمتكم بأفلاذ كبدها"، يريد أن هؤلاء المعدودين صميم قريش ومحضها ولبابها وسرها، أو أنهم أعيان القوم ورؤسأؤهم. وقوله: "بُعِثْتُ في نَسَمِ السَّاعَةِ إنْ كَادَتْ لَتَسْبِقَنِي"، يريد أنه

⁷¹ المصاع: الضرب.

⁷² الشريف الرضي، المجازات النبوية، ص. 44-45.

⁷³ ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر، ج. 1، ص. 50.

بُعِثَ فِي تَنْفِيسِ السَّاعَةِ أَي فِي أَمِهَالِهَا وَتَأْخِرِهَا، أَوْ أَنْ يَكُونَ قَدْ جَعَلَ
 لِلسَّاعَةِ نَفْسًا كَنَفْسِ الْإِنْسَانِ. وَقَوْلُهُ: "ذَلِكَ رَجُلٌ لَا يَتَوَسَّدُ الْقُرْآنَ"، يُرِيدُ
 أَنَّهُ لَا يَنَامُ عَنِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَوْ أَنَّهُ غَيْرُ حَافِظٍ لِكِتَابِ اللَّهِ. وَقَوْلُهُ:
 "قَدْ أَنَاخْتُ بِكُمْ الشَّرْفُ الْجُونُ" أَي الْفِتْنَةَ الْمَتَوَقَّعَةَ. وَقَوْلُهُ: "لَوْ يَعْلَمُونَ مَا
 يَكُونُ فِي هَذِهِ مِنَ الْجُوعِ الْأَغْبَرِ وَمِنَ الْمَوْتِ الْأَحْمَرِ"، وَهَذِهِ صُورَةٌ تَخْفِيفٌ
 وَتَرْهَبٌ. وَقَوْلُهُ: "الْحَيَاءُ نِظَامُ الْإِيمَانِ". وَقَوْلُهُ: "أَوْثَقَ الْعَرَى كَلِمَةَ التَّقْوَى."
 وَقَوْلُهُ: "النَّاسُ مَعَادِنٌ" أَي أَنَّهُ لَا يُحْكَمُ عَلَى ظَوَاهِرِهِمْ. وَقَوْلُهُ: "هِيَ لَيْلَةٌ
 أَضْحِيَانَةٌ كَأَنَّ قَمَرًا يَفْضَحُهَا". وَقَوْلُهُ: "لَا تَمْشُوا عَلَى أَعْقَابِكُمْ الْقَهْقَرِيِّ"
 أَي لَا تَرْجِعُوا عَنِ دِينِكُمْ وَلَا تَكْفُرُوا بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ فَتَكُونُوا كَالرَّاجِعِ
 عَلَى عَقْبِهِ. وَقَوْلُهُ: "حَبْكُ الشَّيْءِ يَعْمي وَيَصِمُ". وَقَوْلُهُ: "تَنَامُ عَيْنَايَ وَلَا
 يَنَامُ قَلْبِي". وَقَوْلُهُ: "الكَلِمَةُ الْحَكِيمَةُ ضَالَّةُ الْحَكِيمِ حَيْثُمَا وَجَدَهَا فَهِيَ
 أَحَقُّ بِهَا". وَقَوْلُهُ: "المَجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ". وَقَوْلُهُ: "الشَّبَابُ شُعْبَةٌ مِنْ
 الْجَنُونَ". وَقَوْلُهُ: "الحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطْبَ". وَقَوْلُهُ:
 "اللَّهُمَّ أَلْمُ شَعَثْنَا". وَقَوْلُهُ: "أَرَى عَلَيْهِ سُفْعَةً مِنَ الشَّيْطَانِ". وَقَوْلُهُ: "مَعْتَرَكُ
 الْمَنِيَا بَيْنَ السَّتِينِ وَالسَّبْعِينَ". وَقَوْلُهُ: "إِنَّ ذَا الْوَجْهَيْنِ لَخَلِيقٌ أَلَّا يَكُونَ
 عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا". وَقَوْلُهُ: "الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى". وَقَوْلُهُ: "وَالَّذِي نَفْسِي
 بِيَدِهِ لَا يَسْلَمُ عَبْدٌ حَتَّى يَسْلَمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ". وَقَوْلُهُ: "لَا تَعَادُوا الْأَيَّامَ
 فَتَعَادِيكُمْ".

وَمِنْ طَلَاوَةِ كَلَامِهِ وَبَلَاغَتِهِ وَجِزَالَتِهِ وَقِصْرِهِ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ: قَالَ رَسُولُ
 اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "أَمْرِي رِيٌّ بِتَسْعِ: خَشْيَةُ اللَّهِ فِي السَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ،
 وَكَلِمَةُ الْعَدْلِ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَالْقَصْدُ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَنْ أَصِلَ مِنْ
 قِطْعَتِي، وَأَعْطِي مَنْ حَرَمْتَنِي، وَأَعْفُوا مِنْ ظَلْمِي، وَأَنْ يَكُونَ صَحْتِي فِكْرًا، وَنَظْمِي
 ذِكْرًا، وَنَظْرِي عِبْرَةً". وَهَذَا الْكَلَامُ وَإِنْ كَانَ وَجِيزًا فَدَلَالَاتُهُ شَامِلَةٌ وَاسِعَةٌ.

حاصل الكلام:

هذه الأحاديث الشريفة من جوامع الكلم، وهي من الأمثال التي تتردد، والعبارات التي يستشهد بها في المواقف، ويرجع إليها في الحكمة والبيان.

إنّ هذه الروعة العظيمة والسحر المؤثر والمعنى البديع واللفظ الرقيق، دفعت الناس الى حفظ الحديث الشريف والعمل به والتمثل بروائعه والاستشهاد ببلاغته وفصاحته، وبذلك لم يكن الاعتماد عليه لكونه كلام رسول الله فحسب، وإنما لأنه أرفع كلام عرفه العرب بعد كلام الله تعالى. ومن أجل ذلك كان أحد آلات أو قل أساليب علم البيان وأدواته، وكان الشاهد البلاغي الرفيع، وكان له تأثير في حياة العرب ولغتهم طوال القرون. وإنّ أحاديث الرسول (عليه الصلاة والسلام) قد دفعت البلغاء من العرب إلى الإمعان في مضامينها، وإلى التأثر بها ودراستها، واستنباط الأحكام والقواعد البلاغية منها؛ وبالتالي إلى التمثل بها. ولولا هذه الأمثلة لما تطورت البلاغة إلى ما عليها الآن.

المصادر

- ابن أبي الإصبع المصري، عبد العظيم بن عبد الواحد. تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إيجاز القرآن. تحقيق حفي محمد شرف. القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1383هـ/1963م.
- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1358هـ/1939م.
- ابن الأثير الحلبي، نجم الدين أحمد بن إسماعيل. جوهر الكنز: تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة. تحقيق محمد زغلول سلام. الإسكندرية: منشأة المعارف، د.ت.

- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي. العقد الفريد. القاهرة، 1293هـ.
 الجاحظ، عمرو بن بحر. البيان والتبيين. تحقيق عبد السلام محمد هارون. القاهرة: مطبعة
 لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1367-1369هـ/1948-1950م.
- الحيوان. تحقيق عبد السلام محمد هارون. القاهرة: مكتبة مصطفى الباي
 الحلبي، 1356-1363هـ/1938-1945م.
- الجارم، علي ومصطفى أمين. البلاغة الواضحة. القاهرة، د.ت.
 الحلبي، شهاب الدين محمود بن سليمان. حسن التوسل الى صناعة التوسل. تحقيق أكرم
 عثمان يوسف. بغداد: وزارة الثقافة والإعلام؛ دار الرشيد، 1980.
 الحموي، ياقوت بن عبد الله. معجم الأديباء. القاهرة، 1980.
 زيدان، جرجي. تاريخ آداب اللغة العربية. القاهرة، د.ت.
 الزيات، أحمد حسن. تاريخ الأدب العربي. القاهرة، 1959.
 السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. شرح عقود الجمان في علم المعاني
 والبيان. القاهرة: مكتبة مصطفى الباي الحلبي، 1358هـ/1939م.
- المزهري في علوم اللغة وأنواعها. تحقيق محمد أحمد جاد المولى، علي محمد البجاوي
 ومحمد أبو الفضل إبراهيم. الطبعة الثالثة. القاهرة، د.ت.
 الشريف الرضي، محمد بن الحسين الموسوي العلوي. المجازات النبوية. تحقيق محمود مصطفى.
 القاهرة: مطبعة مصطفى الباي الحلبي وأولاده، 1356هـ/1937م.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله. كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر. تحقيق علي
 محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية،
 1371هـ/1952م.
- العلوي، يحيى بن حمزة. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز.
 القاهرة: دار الكتب الخديوية، 1332هـ/1914م.
- الفاخوري، حنا. الجاحظ. بيروت، 1953.
 القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن الخطيب. الإيضاح في علوم البلاغة. تحقيق
 جماعة من علماء الأزهر. القاهرة، د.ت.